ابن الراوندي[1]

فذلكة عنه

« ولم يزل الالحاد في بني آدم على ممر الدهور » ابو العلاء

« زنادقة الاسلام ثلاثة . ابن الراوندي ، وابو حيان ، وابو العلاء » الحافظ بن الجوزي

ولد ابو الحسين احمد بن يحيى بن اسحق الراوندي ، فيما بين السنة ٢٠٥ هـ . و٢١٥ هـ . اما موته فمختلف في تاريخه جداً . والضبط الذي يبدو اقرب الى المعقول من سواه هو انهُ توفي في اثناء الفترة الممتدة بين سنتي ٢٩٨ و٣٠١ هـ[2] . وهو في الاصل من اهل مرو الروذ ، وينتسب الى قرية من قرى قاسان بنواحي اصبهان تقع في جنوب فارس وشمالي شط العرب . لسنا نعلم عن نشأته الاولى شيئاً ، غير ان المشهور عنهُ انهُ ما عتم ان شب حتى ترك كورتهُ ونزح الى بغداد ، دار السلام ومدينة عجائب الزمان التي جمعت بين طرائف العالم الاسلامي كلها . هذا ما اخبرنا به عبد الرحيم العباسي في كتابه « معاهد التنصيص »[3]

نترك ، اذن ، طفولة ابن الراوندي ونشأته الاولى آسفين لجهلنا اياها ، إذ ان الباحث يهتدي الى الرجل بالطفل ، ونطفر رأساً الى تلك الحقائق الجافة والروايات الضعيفة ، المضطربة ، المبثوثة في ما بقي لنا من المؤلفات التي خزنت في بطونها شيئاً من تاريخ الفكر العربي

ان كل ما نعرفهُ عن أسرة ابن الراوندي هو انها من اصل يهودي ، وان اباه كان يدين باليهودية ثم اسلم ، واليهود شعب لم يعرفهُ التاريخ إلا بمبادرته . ونعلم كذلك انهُ كان لصاحبنا اخ وعم معتزليان استناداً الى ما ورد في كتاب « الانتصار »[4] تأليف ابي الحسين الخياط حيث قال « وكما ان عم صاحب الكتاب (يقصد بصاحب الكتاب ابن الراوندي) وأخاهُ معتزليان الخ ... »

ويظهر ان اباه ، يحيى بن اسحق ، كانت قد انغرست فيه بذرة من الثورة وحب الشغب

---

(١) لخص هذا المقال من درس وضعه كاتبه الفاضل عن ابن الراوندي ، وهو يعده للنشر

(٢) اتفق مؤلفو الراوندي على انه ولد فيما بين سنتي ٢٠٥ — ٢١٥ هـ . اما وفاته فمن قائل انها وقعت سنة ٢٥٠ وله من العمر ما يدور حول الاربعين ، ومن قائل انه قبض حوالي سنة ٣٠٠ وعمره نيف وثمانون . ونحن نرجح مع الدكتور نيبرج المستشرق الاسوجي انه توفي فيما بين سنتي ٢٩٨ — ٣٠١ هـ

(٣) جزء ١ — ص ٧٦ من طبعة بولاق

(٤) الانتصار ص ١٩٤ - طبع دار الكتب المصرية بعناية الدكتور نيبرج

فأورثها ابنه. فقد روي انه كان بعض اليهود يقول لبعض المسلمين بشأن صاحبنا : « ليفسدن عليكم هذا كتابكم كما افسد ابوه التوراة علينا ! » فكأني بعد هذا الحديث ارى يحيى ابا احمد الراوندي قد انشق لامر ما على اهل طائفته فأخذ يثير عليهم عجاج الجدل والمشاغبة كما كان ابنه يفعل فيما بعد ، فاذا لم يتم له ما اراد انقلب مسلماً نكاية في بني دينه اليهود !

لا تذكر كتب التراجم شيئاً البتة عن ابن الراوندي قبل زمن اعتزاله. ولذلك نبتدىء بحديثنا عنه من ذلك الحين . اما متى اعتزل ، فمسألة يحفها الغموض . وكيف وعلى من درس اصول الاعتزال ؟ فان هذا في الغموض صنو ذاك . ولكننا نرجح أن الزمان الذي كان فيه ابن الراوندي من اتباع المذهب الاعتزالي يمتد من تاريخ مجهول في شبابه ، من الثامنة عشرة او العشرين مثلاً الى الخامسة والعشرين من سنيه كحد اقصى . اذن فلنرافق صاحبنا في سفرة حياته من مرحلة الاعتزال ، ولا ريب اننا تاركوه في الجحيم !

حذق ابن الراوندي اساليب المعتزلة في الكلام وتفنن في الاقتباس عنهم ، والاختراع على اصولهم ، حتى فاق أقطابهم في صناعتهم وهو لم يقطع بعد مرحلة الشباب الاولى . وقد بلغت به القدرة في الكلام ، والاتساع في علوم الاعتزال ان شهد فيه كبير من علمائهم هو أبو القاسم البلخي الكعبي في كتابه «محاسن خرسان» هذه الشهادة الطيبة : «كان ابن الراوندي هذا من المتكلمين ، ولم يكن في نظرائه في زمانه احذق منه بالكلام ، ولا اعرف بدقيقه وجليله . وكان علمه أكثر من عقله ... » . ثم يقول البلخي عنه بعد هذا الكلام : وكان في اول امره حسن السيرة ، حميد المذهب كثير الحياء ، ثم انسلخ من ذلك كله لاسباب عرضت له

ويقول عبد الرحمن العباسي في كتاب «معاهد التنصيص» : وكان (اي ابن الراوندي) من متكلمي المعتزلة ثم فارقهم وصار ملحداً

ويقول احمد ابن يحيى المرتضى في مؤلفه «المنية والامل» المطبوع في حيدر أباد سنة ١٣١٦ هـ «وكان ابن الراوندي المخذول من هذه الطبقة (اي الثامنة) ، ثم جرى منه ما جرى وانسلخ عن الدين ، وأظهر الالحاد والزندقة ، وطردته المعتزلة ، فوضع الكتب الكثيرة في مخالفة الاسلام ... »

ويقول ابو الحسين الخياط في «الانتصار» : «... فلعمري ان فضل الحذاء قد كان معتزلياً نظامياً الى ان خلط وترك الحق ، فنفته المعتزلة وطردته عن مجالسها ، كما فعلت بك لما الحدت في دينك ، وخلطت في مذهبك ، ونصرت الدهرية في كتبك ... »

ها انا قدمنا اليك اربعة نصوص مقتضبة لاربع من القدماء عنوا بابن الراوندي ما بين

زجمة ونقض وهجاء . وفي هذه النصوص الاربعة نجد سيرته هيكلاً عظيماً، ينقصهُ حتى يصير انساناً سويّاً ، اللحم والدم والاصفرار

يجب ان يحتفظ دارس ابن الراوندي ، قبل خوضه في موضوعه بحقيقة عنهُ بارزة ، ليس في وسع انسان انكارها عليه . تلك الحقيقة هي سعة علم صاحبنا . ان ابلغ صورة تقدر ان تشبّها له هي التي شاءها «انسيكلو بيديست» اغترف من كل علم نصيباً وفيراً . لقد ظهر واضحاً من النصوص التي اوردناها فوق أن علم ابن الراوندي كان عظيماً ، وسيع الافق ، حتى شهد له بذلك مخالفوه، في الرأي والعقيدة . ومن قرأ كتاب الانتصار، وقد وضعهُ ابو الحسين الخياط المعتزلي بمثابة نقض لكتاب «فضيحة المعتزلة» الذي الفه ابن الراوندي منتصراً فيه للرافضة، يعرف منهُ مقدرة صاحبنا ومبلغ علمه وذكائه . ثم ليس لدينا اليوم مؤلف واحد لابن الراوندي مع ان ابن خلكان حسب له في كتابه «وفيات الاعيان» مائة واربعة عشر تصنيفاً، ولكن يكفي لان نقتنع بغزارة اطلاعه، وقوة عارضته في الجدل، وتدفقهُ في ايراد الحجة ، ان نلقي بنظرنا على بعض فقرات له في كتابه «فضيحة المعتزلة» اوردها ابن الخياط في « الانتصار» بقصد الرد عليها واتقاضها من وجهة نظر معتزلي متعصب لاعتزاله

لقد كان ابن الراوندي ملحداً في شبابه ولكنهُ كان اعرف باعجاز القرآن وسحره من اكثر المؤمنين . ولقد كان عدوًا للمعتزلة بعد ما هجرهم وحاربهم على انهُ كان في حربه لهم انهم لنظريات الاعتزال ومبادئه وأعمق ادراكا لعلوم الكلام من المعتزلة انفسهم . ويكفي ان يقول عنهُ البلخي انهُ لم يكن في نظرائه في زمنه احذق منهُ بالكلام ، ولا اعرف بدقيقه وجليله . وجاء في «وفيات الاعيان» : ان له مقالة في الكلام ، وكان من الفضلاء في عصره وله مجالس ومناظرات مع جماعة من علماء الكلام . وقد انفرد بمذاهب نقلها اهل الكلام عنهُ في كتبهم » . واورد صاحب «الفهرست» هذه القصة (ولم اجدها في غير هذا الكتاب) قال : وحكى ابو الحسين الراوندي، قال : مررت بشيخ جالس وبيده مصحف وهو يقرأ «ولله ميزاب السموات والارض» فقلت : وما يعني «ميزاب السموات والارض ؟» قال : هذا المطر الذي ترى . فقلت : ما يكون التصحيف الا اذا كان مثلك يقرأ يا هذا ! انما هو «ميراث السموات والارض» فقال : اللهم غفراً ! انا من اربعين سنة اقرأها ، وهي في مصحفي : هكذا ! . .

وبينا كان هذا من امر صاحبنا ، متحد يصحح قراءة مؤمن ، اذا نحن نتهمهُ في الوقت نفسه يصنف معارضاته للقرآن الكريم ونقائضهُ على الانبياء والكتب المنزلة . جاء في معاهد التنصيص : انهُ قد اجتمع ابن الراوندي ، وابو علي الجبّائي ، يوماً على جسر بغداد ، فقال له : يا ابا

علي ! ألا تسمع شيئاً من معارضتي للقرآن ونقضي له ؟ فقال له : انا اعلم بمخازي علومك وعلوم اهل دهرك . ولكني احاكمك الى نفسك : فهل تجد في معارضتك له عذوبة وهشاشة وتشاكلاً وتلازماً ، ونظماً كنظمه ، وحلاوة كحلاوته ؟ قال : لا والله ! قال : قد كفيتني فانصرف حيث شئت ! »

بلى ، لقد كان ابن الراوندي محيطاً بجماع علوم عصره وفلسفاته واديانه . وضع كتاباً لليهود يرد فيه على المسلمين . ثم رام نقضه بنفسه فلم يفعل لسبب سيأتي ذكره . وضع « الامامة » للرافضة لقاء ثلاثين ديناراً وكتباً غيره في الطعن على التوحيد واهله ، لكن نقضها بنفسه اذ وضع كتاباً صنفه لاهل التوحيد . ولقد اتينا بنبذة عن مبلغ علمه في الاعتزال ولكنه وضع الكتب عليها يحفرها ، ويبحث فيها من إثلها ، واستخرج الحجج عليها من علومها واساليبها في الجدل وصياغة البرهان . وصنف الكتب ضد الانبياء جميعاً ، وعارض نظم القرآن بنظم من صنعه . ووضع التآليف للرافضة ضد أهل السنة والاعتزال ، وللسنة ضد الآخرين ، وفي اول نشأته ، للاعتزال ضد المذاهب جميعاً ! وعارض كتبه بنفسه ، فما كان يُنشر الكتاب في غاية من غاياته ويصل اليها حتى يرمي الى الناس بنقض لما ورد في ذلك الكتاب . ويظهر انه كان في الغالب موفقاً في الحصول على بغيته ، يصل اليها بسهولة عجيبة . ذكر ابو العباس الطبري « ان ابن الراوندي كان لا يستقر على مذهب ولا يثبت على حال ، حتى انه صنف لليهود كتاب « البصيرة » رداً على الاسلام لاربعمائة درهم أخذها فيما بلغني من يهود سامرا ، فلما قبض المال رام نقضه حتى اعطوه مائة درهم اخرى فامسك عن النقض !.. » (نقلاً عن معاهد التنصيص)

وكان كل كتاب ينشره يثير دوياً بعيداً في الاوساط الدينية والفلسفية فلا يلبث ان يذيع حتى يسرع بعض الكتاب في نقضه ، والبعض في امتداحه ، اذ ان ابن الراوندي كانت طريقته في حياته المذهبية التلاعب بالفرق والملل وباهل كل منها يمدح اليوم مذهباً ويحقر آخر ، فيحمى وطيس القتال بين اهل المذهبين حتى لينسونه لشدة ما يستولي عليهم من الحدة وسورة النضال . ثم لا يمر زمن حتى ينقض كتابه بنفسه فيطري ما هجا ، ويهجو ما اطرى ، ويصغر ما عظم ، ويعظم ما صغر ، فلا يزال القتال مستمراً بين اهل الملتين وهم مدفوعون بكتابات صاحبنا وحججه التي يؤلبها جميعاً تارة في هذا الجانب من الموضوع وتارة في الجانب الآخر . جاء في الفهرست : « ومما ألف (صاحبنا) من الكتب الملعونة... كتاب يطعن فيه على نظم القرآن : نقضه عليه الخياط وابو علي الجبائي وسهل بن نوبخت ، ونقضه هو على نفسه ! » فتأمل . . . لا شك في ان جميع هذا يدل على ان ابن الراوندي كان من أفذاذ عصره علماً بل من اعلام العصور كما انه يعد من اقطاب المشاغبين والخارجين

اخذ صاحبنا في ايام شبابه يلازم اهل الإلحاد . فاذا عُوتب في ذلك احتج لصنيعه قائلا: انما اريد ان اعرف مذاهبهم ! . وهـذا الجواب لعمري حجة قاطعة اذ هو من قبيل : تعلّم السحر ولا تعمل به . ولكنهُ ليس بالحجة القائمة . ولقد اخذت الشبهات تسلّ الى قلوب اصحابه القدماء من المعتزلة وممن كانوا ذوي دين جميل ، وسيرة تورعة ، من حين هذه الملازمة ومثل هذا الجواب . ويظهر من هذا ان صاحبنا كان له رفقاء يشاركونه في آرائه ، وانهُ كان من عادتهم ان يجتمعوا الى بعضهم فيدلون بافكارهم ، ونتيجة اطلاعهم ، ويجدلون ويتناقشون في امور ما كانت الجبية لتسمح بحثها والجدل في امرها . قال صاحب الانتصار (ص ١٠٣) : وهذا القول كان لقوله الخبيث (صاحبنا) في آخر صحبته للمعتزلة . وصحبه على ذلك احداث ، فكلهم اظهر الحاده وانكشف كفره . . . »

ولقد كان ابن الراوندي ، كما يفهم من النصوص القديمة تلميذاً وصديقاً لابي عيسى الورّاق وابي حفص الحداد وغيرهما من مشهوري ملاحدة ذلك الزمان الذين تستروا بالرفض اتقاء لشرور المعتزلة واهل السنة ومحاربتهم . قال ابن الخياط في الانتصار (ص ٩٧) : قد كان تعرضنا لنقض كتاب ساقط مثلك (يخاطب صاحبنا) ضرباً من العناء . ولكنا قد نقضنا على استاذيك ، ابي حفص الحدّاد وابي عيسى الورّاق مع خساستها وضعتها ، فليس بمستكثر ان تنقض على من قاربهما من اتباعهما » وقال ايضاً « (ص١٤٩) يخاطبهُ « ولما ضلّت (اي المعتزلة) باخيك أبي عيسى لما قال بالمانية . . . »

ألحد ابن الراوندي فاخذ يخرج للناس كتب الالحاد بالعشرات . ولكن البحث العلمي حظهُ سيئ ، اذ لم يصلنا من هذه الكتب مؤلف واحد ، بل انهُ لم يبقَ لنا من جميعها التي بلغت — على حساب ابن خلكان — المائة والاربعة عشر كتاباً سوى عبارات متقطعة مبثوثة هنا وهناك في كتب التراجم العتيقة والرادين عليه . وكان قد صنّف كتاباً للرافضة ردّاً على « فضيلة المعتزلة » الذي ألفهُ الاديب العربي الكبير الجاحظ ، ليبثّ بهِ الدعوة الى الاعتزال وقد كان من رؤسائه ، فسماه « فضيحة المعتزلة » فوصلنا من هذا المؤلف قطع مبعثرة في كتاب « الانتصار » الذي صنّفهُ ابو الحسين الخياط ردّاً بدوره على « فضيحة المعتزلة » وهي تدل على ما بلغ اليهِ تفكيره من عمق وعلمه من غزارة ، وشكه من استهانة ومجونه من تلاعب بالفرق والشيع والاديان تلاعباً مزرياً بها وباهلها محطاً من شأنهم وشأنها

كم يلذ لي التحدث عن صاحبي هذا ! انها لساعة من سحر تلك التي اقعد فيها الى مكتبي وامامي « علبة » لفافاتي الفاتنة لاتحدث الى قلمي او الى قارئي بخبره . ولكني قد رأيت القلم قد جمع في هذه الفذلكة فاطال وانا لا اريدها ان تكون اكثر من امرار نظر والتقاط

بعض الحوادث من صفحات الرسالة التي وضعنا عليه . ها قد وصلت في مقالي الى ابتداء الامر بالحاد صاحبنا ولست ادري كيف انتهي وماذا اختار من الكلام والكلام كثير ولكني اراني مرغماً على الانتهاء هنا او بعد هنا بقليل ، اذ اريد قبل ان نسدل الستار ان اسوق الى القارئ بعض اقوال صاحبنا المأثورة عنهُ علها تساعد على فهم هذه النفس الغريبة الشاذة وعلى تصورها . قال البلخي : «... ومما الفه من كتبه الملعونة : كتاب «التاج» يحتج فيه على قدم العالم وكتاب «الزمردة» يحتج فيه على الرسل ويبرهن على ابطال الرسالة، وكتاب «الفرند» في الطعن على النبي (صلعم) وكتاب « اللؤلؤة » في تناهي الحركات . . .

« فما قالهُ في كتاب « الزمردة » انهُ انما سماه بالزمردة لان من خاصة الزمرد ان الحيات اذا نظرت اليه ذابت وسالت اعينها ! .. فكذلك هذا الكتاب اذا طالعه الخصم ذاب ! وهذا الكتاب يشتمل على إبطال الشريعة الشريفة ، والازدراء على النبوات المنيفة. فما قاله فيه — لعنه الله وابعده ! — . إنا نجد في كلام أكثم بن صيفي (الحكيم الجاهلي المعروف) شيئاً احسن من « إنا اعطيناك الكوثر » ! .. وقال : ان قوله (يعني نبيّنا عليه الصلاة والسلام) لعمّار رضي الله عنهُ — « تقتلك الفئة الباغية » كل المنجمين يقولون مثل هذا ! » وكان يقول: ان الانبياء يشعبذون الناس بالطلاسم !

« وقال في كتاب « الدامغ » : ان الخالق ، سبحانهُ وتعالى ، ليس عنده من الدواء إلاّ القتل ، فعل العدو الحنق المغضوب ، فما حاجتهُ الى كتاب ورسول ؟ قال : وزعم انهُ يعلم الغيب فيقول « وما تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إلاَّ يَعْلَمُهَا » ثم يقول « وما جَعَلنا القبلة التي كُنْتَ عليها إلا لِنَعْلَمَ » . . . وقال في وصف الجنة « فيها أنهارٌ مِنْ لَبَنٍ لمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » وهو الحليب ولا يكاد يشتهيه إلا الجائع . وذكر العسل ولا يطلب صرفاً ، والزنجبيل وليس من لذيذ الاشربة ، والسندس يفترش ولا يلبس ، وكذلك الاستبرق ، وهو الغليظ من الديباج . ومن تخايل انهُ في الجنة يلبس هذا الغليظ ويشرب الحليب والزنجبيل صار كعروس الاكراد والنبط ! . . . معاهد التنصيص نقلاً عن البلخي

جاء في الصفحة الثانية من كتاب الانتصار بقلم ابي الحسين الخياط الكلام التالي :

« . . . ولكن كيف يتعجب من شتم صاحب الكتاب (يقصد الراوندي صاحب كتاب « فضيحة المعتزلة » الذي رد عليه ابن الخياط) المعتزلة ، والكذب عليها ، ورميها بما ليس من قولها ، وقد ألف عدة كتب في تثبيت الالحاد ، وابطال التوحيد ، وجحد الرسالة ، وشتم النبيين عليهم السلام والائمة الهادين . وهي كتب مشهورة معروفة ، فمنها كتاب يعرف بكتاب « التاج » أبطل فيه حدث الاجسام وفناءه ، وزعم انهُ ليس في الاثر دلالة على مؤثر ،

ولا في الفعل دلالة على فاعل ، وان العالم بما فيه و ... ...[1] قره وجميع نجومه قديم لم يزل لا صانع لهُ ولا مدبر ، ولا محدث لهُ ولا خالق ، وان من ثبّت للعالم خالقاً قديماً ليس كمثله شيء فقد أحال وناقض . ومنها كتاب يعرف بكتاب « التعديل والتجوير » (ويسميه صاحب الفهرست بكتاب « عبث الحكمة ») زعم فيه انهُ مَنْ أمرَضَ عبيده وأسقمهم فليس بحكيم فيما فعل بهم ، ولا ناظر لهم ولا رحيم بهم ، كذلك من افقرهم وابتلاهم وانهُ ليس بحكيم من امر بطاعته مَنْ يعلم انهُ لا يطيعهُ وانهُ من خلّد من كفر به وعصاهُ في النار طول الابد . . . غير حكيم ولا عالم بمقادير العقاب على الذنوب ! . . ومنها كتاب يعرف بكتاب « الزمرد » ذكر فيه آيات الانبياء « عليهم السلام » كآيات ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد ، صلى الله عليهم ، فطعن فيهم و .... ، وان القرآن من كلام غير حكيم .... ومنها كتاب يعرف بكتاب « الامامة » يطعن فيه على المهاجرين والانصار ، ويزعم ان النبي.... فمن كان هذا قولهُ في رب العالمين ، وفي الانبياء والمرسلين ، وفي سلف الأئمة الصالحين المرضيين ، كيف يتعجب من شتمه المعتزلة وكذبه عليها وقد كذب على الله تعالى وعلى انبيائه المرسلين وعلى اصحابه الطاهرين ؟ الخ . . . »

ولصاحبنا شعر قليل لا تتعدى قطعته اليتين . وهي تساعد القارىء على البلوغ الى دخيلة نفس هذا الانسان الغريب ، الجرىء ، المجنون ، المحبوب . فمن شعره :

محنُ الزمان كثيرةٌ لا تنقضي ... وسروره يأتيك كالاعياد

ملكَ الاكارم فاسترقَّ رقابهم ... وتراهُ رقاً في يد الاوغاد !

وقولهُ أليس عجيباً بأنَّ امرؤاً ... لطيف الخصام ، دقيق الكلِمْ

يموت وما حصلت نفسه ... سوى علمه أنهُ ما عَلِمْ ! . .

واورد لهُ ابو العلاء المعري في « رسالة الغفران » بيتين تهكم بهما على الخالق عنيف شنيع وله بيتان آخران في هذا المعنى اقل مجوناً من المذكورين ، وهما قوله المشهور :

كم عاقل عاقل ، أعيت مذاهبهُ ... وجاهل جاهل ، تلقاه مرزوقا !

هذا الذي ترك الأفهام حائرة ... وصيَّر العالم النحرير زنديقا . . .

وبعد ، فنحن لا نودّ ان نختم هذه النظرة العجلى من غير ان نسطِّر اهُ ارنا واعجابنا بهذه المدنية الاسلامية السمحة التي كانت تأذن لامثال صاحبنا ابن الراوندي بهذا الاجتراء على عقائدها ، وبهذا التهجُّم والتنقُّص من تفكيرها ودينها ، وهي ساكنة هادئة تؤلف الكتب ردّاً عليه ، ودحضاً لما أتاه به عنها من حامي المطاعن . وان تاريخ المدنيات القديمة لا يروي لنا سيرة اي جرئ متهور بلغ به تهوره الى الحد الذي بلغ بصاحبنا

دمشق ... ظليم خياطه

(١) مخروم ومطموس في المخطوط الذي نشره الدكتور نيبرج